

موت أمه

ورد في بعض النسخ لديوان أبي فراس ، قصيدة رثى بها الشاعر أمه ، وهو في الأسر ، بينما أغفلتها بعض النسخ الأخرى ، ووجود هذه القصيدة الرثائية يضعنا في حيرة من الأمر ، فهي تثبت وفاتها في حياة ابنها الأسير ، بينما يقول ابن خلكان^(١) : « وكان أبو فراس خال أبي المعالي ، وقلعت أمه سخيئة عينها لما بلغها وفاته ، وقيل إنها لطمت وجهها ، فقلعت عينها » ، مما يدل على أن هذه الأم عاشت بعد موت ولدها .

والذي أرجحه أن هذه القصيدة لأبي فراس ، وإذا نحن أعدنا ضمير « أمه » في قول ابن خلكان على أبي المعالي كانت سخيئة أمه وأخت أبي فراس ، وقد أوضح مرجع الضمير هذا صلاح الدين الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات ، فإنه وضع المظهر موضع المضمّر ، فقال : « فلما بلغت وفاته أم أبي المعالي لطمت وجهها ، وقامت عينها^(٢) » ، ومما يؤيد ذلك أنه لم يتحدث إلى أمه بعد أسره . بدأ أبو فراس قصيدته ، ينادي أمه على البعد ، ويدعو لقبورها بسقيا الغيث ، متحدثاً عن تلك الغصة التي لزمته في حياتها ، وهي غصة أسره ، باكياً على أن يأتي ذلك اليوم ، الذي يظفر فيه بحريته ، ولا يجد تلك التي تتلف على تلك الحرية ؛ فقال :

أيا أم الأسير ، سقاك غيث بكره منك مالتى الأسير

أيا أم الأسير ، سقاك غيث إلى من بالفدا يأتي البشير

ومضى حزينا على فقدان تلك الدعوات الصالحة التي كانت تصحبه أينما سار ، وعلى موتها وحيدة قد غاب عنها هذا الذي كانت تمن إلى لقياء ، ولعله

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٨ . (٢) ديوان أبي فراس ص ٢١٦ .

كان يعزى نفسه ، بأن تقواها جعلت الملائكة الأطهار يحفون بها ، وهى تسلم الروح ، قال :

إذا ابنك سار فى بر وبحر فمن يدعو له ؟ أو يستجير ؟
حرام أن يبیت قریر عین واؤم أن یلم به السرور
وقد ذقت المناسیا والزایا ولا ولد لديك ، ولا عşیر
وغاب حبيب قلبك عن مكان ملائكة السماء به حضور
وأخذ يتحدث عن تقواها ، وبرها ، وختم قصيدته بتلك المناجاة الحزينة :
أيا أماء ، كم بشرى بقربى أنتك ، ودونها الأجل القصير
إلى من أشتكى ؟ ولمن أناجى ؟ إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأى دعاء داعية أوقى ؟ بأى ضياء وجه أستنير ؟
نسلى عنك أنا عن قليل إلى ما صرت فى الأخرى نصير
وكل أولئك إحساسات صادقة ، وتعبير صاف عن عواطف قوية متمكنة :
فكم كانت أمه تتلهف على لقائه ، ويبشرها المبشرون بقربه ، وهى تترقب فى شوق ذلك اليوم الذى حال بينه وبينها الأجل ، ثم يسأل فى يأس ، بعد فقدانها ، عن هذا القلب الذى يشكو إليه بثه ، ويناجيه بآماله وآلامه ، إذا ضاق صدره بما فيه ، وعن هذا الإخلاص الذى كان يحيط خطاه بالدعوات الصالحة ، وعن هذا الرأى السديد الذى كان ينير له طريقه فى الحياة ، فيجد فى ألم ممض أن كل شىء قد مضى ، ولا يخفف عنه لوعته ، إلا علمه بأنه صائر إلى حيث صارت أمه الحبيبة .

تشيعة

اتصل الحمدانيون بخلفاء بني العباس اتصال صداقة وود حيناً ، واتصال عداوة ونفار أحياناً ، مع الاعتراف لهم بإسرة المؤمنين ، وكثيراً ما حاربوا إلى جانبهم يريدون أن يستخلصوا ملك العباسيين من أيدي الفرس والترك ، ولقد ساءهم ولا ريب أن يستبد هؤلاء الدخلاء بأمر العرب ، وآلمهم أن يصبح الخلفاء لعبة في أيدي هؤلاء المتغلبين ، وقد افتخر أبو فراس في رائيته بأن سيف الدولة وأخاه ناصر الدولة ، قد حارباً في صف أمير المؤمنين ، ونصره ، وأجاره ، حين عز عليه الناصر والحجير ، فقال :

فميننا الدين الله عز ومنعة وفيما لدين الله «سيف» و «ناصر»
هما ، وأمير المؤمنين مشرد ، أجاره ، لما لم يجد من يجاور
ورداه ، حتى ملكاه سريره بعشرين ألفاً ، بينها الموت سافر
ذلك كان مذهبهم السياسى فى علاقتهم بالأسرة الحاكمة فى بغداد ، أما فى باطن أمرهم فقد كانوا شيعة ، يحنون إلى الإمام على ، ويضمرون الإجلال لأبنائه ، يقول الدكتور أحمد أمين بك ^(١) : « الحمدانيون يغلب عليهم التشيع ، فمن آثارهم التى وصلت إلينا درهم لناصر الدولة الحمدانى ، على أحد وجهيه : لا إله إلا الله ، المطيع لله ، ناصر الدولة ، وعلى الآخر : محمد رسول الله ، على ولى الله . ورووا أن سيف الدولة زوج ابنته ست الناس ، لأبى تغلب الحمدانى ، وضرب لهذا الحادث ، دنانير ، على أحد وجهيها : محمد رسول الله ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فاطمة الزهراء ، الحسن والحسين ، جبريل . وعلى الآخر : أمير المؤمنين المطيع لله ، الأميران الفاضلان : ناصر الدولة وسيف الدولة ،

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٧٤ .

الأميران أبو تغلب وأبو المكارم » . ١٠ هـ

فكان الحمدانيون شيعيين فيما بينهم وبين الله ؛ عباةيين فيما بينهم وبين الناس ، وكان أبو فراس من أشد الحمدانيين تعصبا للإمام علي وأبنائه ، وهو يتخذهم وسيلة يوم العرض على الله ، ويرجو النجاة بهم ، وله في ذلك مقطوعة صغيرة تنتهى بكلمة عليّ ، إذ قال :

لست أرجو النجاة من كل ما أخشاه إلا بأحمد وعلى
وبينت الرسول فاطمة الطهر ، وسبطيه ، والإمام على
والتقى النقي باقر علم الله فينا : محمد بن علي
وأبي جعفر سمي رسول الله ، ثم ابنه الذكي على
وابنه المسكري ، والقائم المظهر حتى محمد وعلى
فبهم أرتجى بلوغ الأمانى يوم عرضى على الإله العلى

وواتته الظروف للمجاهرة برأيه في حق بنى عليّ أن يكونوا خلفاء الناس
وولاتهم ، وفي التنديد ببني العباس ، وحزنه على ما أصاب الخلافة على أيديهم
من الضعة والانحطاط - واته هذه الظروف يوم أنشأ محمد بن عبد الله بن سكرة
الهاشمي قصيدة يفتخر بها على الطالبين ، وينتقص أبناء علي ، بدأها بقوله :

بنى علي ، دعوا مقاتلكم لا ينقص الدر وضع من وضعه
فنظم أبو فراس قصيدة رائعة طويلة يرد بها عليه ، بدأها بأنه أرسلها حزنا على
ما أصاب الدين من الضياع ، لأن حق آل رسول الله أصبح موضعاً للارتياب .
الدين محترم ، والحق مهتضم وفي آل رسول الله مقتسم
وإن ثورته في تلك القصيدة الجاححة ، تدل عليها هذه الأبيات التي تنبئنا
عما قد يكون أبو فراس أضمره : من نيل حق العلويين ، بالتدبير وحسن الإعداد
وتهيئة الوسائل في صمت وخفاء :

إني أبيت قليل النوم ، أرقنى قلب تصارع فيه المم والمم

يصفان مهري لأمر لا أبوح به والدرع والرمح والصمصامة الخدم
وفتية قلبهم إذا ركبوا يوما ، ورأيهم رأى إذا عزموا
ويستصرخ أبو فراس من حوله من الناس ، ويطلب منهم الانتقام لدين الله
والانتصار لبني علي المشردين في ديارهم ، المظلومين في أرضهم ، في حين أن أمر
الملك في الدولة العباسية يدبره الخدم ، وتصرفه المرأة ، وقد رأينا صورة لذلك فيما
رسمناه لهذا العصر:

يا للرجال ! أما الله منتصر من الطغاة ؟ أما للدين منتقم ؟
بنو علي رعايا في ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم
ثم يتجه إلى بني العباس يندد بطغيانهم ، ويعجب كيف يستطيعون الفخر
على بني علي ، وهم لا يقارونهم في نسب ، ولا يدانونهم في شرف :

لا يطغين بني العباس ملكهمو بنو علي مواليهم ، وإن رغبوا
أتفخروا عليهم ، لا أبالكمو حتى كأن رسول الله جدم
وما توازن يوما بينكم شرف ولا تساوت بكم في موطن قدم
ولا لكم ، مثلهم ، في الجدم ، متصل ولا لجدم معشار جدم
ولا لعرقكم من عرقهم شبه ولا « نفيلتكم » من أهم أم
ثم عرض أبو فراس بعد ذلك للخلافة في منشئها ، وهو لا يذهب إلى أنها
شورى تقال بطريق الانتخاب ، بل صاحبها الجدير بها ، هو علي بن أبي طالب ،
عهد بها إليه النبي يوم الغدير ، وإن الناس ما كانوا يجهلون هذا العهد ، وما كانوا
ينكرون أنه أولى الناس بها ، ولكنهم أخفوا وجه الحق وستروه ، ويعتقد
أبو فراس أن من سبق عليا من الخلفاء نال الخلافة ولم يكن لها بأهل :

حتى إذا أصبحت في غير صاحبها باتت تنازعها الذؤبان والرخم
وصيرت بينهم شورى ، كأنهمو لا يعلمون ولادة الحق أيهم
تالله ما جهل الإنسان موضعها لكنهم ستروا وجه الذي علموا

والعجب لبني العباس أن يدعوا الخلافة إرثاً لهم ، وليس لهم فيها قدم ثابتة ، وما كان الناس يفكرون فيهم ، حين فكروا في أمر الخلافة ، ولم يحكموا فيها ولم يستشاروا ، ولم يرم أبو بكر ولا عمر أهلاً لملها :

ثم ادعاه بنو العباس إرثهم وما لهم قدم فيها ولا قدم لا يذكرون إذا ما عصبه ذكرت ولا يحكم في أمر لهم حكم ولا رآهم أبو بكر وصاحبه أهلاً لما طلبوا منها وما زعموا ويأخذ أبو فراس بعد ذلك في موازنة بين صنيع علي في بني العباس ، وكيف ولاهم الولايات هنا وهناك ، وبين ما جوزى به بنو علي ، على يد بني العباس : من القتل والظلم والتشريد ، ويحتم تعداد آثامهم في بني علي بقوله :

ما نال منهم بنو حرب ، وإن عظمت تلك الجرائر ، إلا دون نيلكم كم غدره لكم في الدين واضحة وكم دم لرسول الله عنفكم أنتم آله فيما ترون ، وفي أظفاركم من بنيه الطاهرين دم ويمضي أبو فراس مقرعاً بني العباس ، مندداً بغدرهم في لهجة قوية عنيفة ، حتى إذا انتهى من ذلك ، مضى يتهم بني العباس أنهم يدعون الخلافة ويسمون خلفاء ، في حين أن أمر الخلافة الحقيقي إنما هو بأيدي العجم ، فأى فخر لهم ، وغيرهم هو الأمر المحتم ؟ !

أبلغ لديك بني العباس مألوفة لا يدعوا ملكها ، أملاكها العجم أى المفاخر أمست في منابرهم وغيركم أمر فيهن محتم وهل يزيدكم من مفخر علم وفي الخلاف عليكم يخفق العلم ولا يقف أبو فراس عند هذا الحد ، ولكن يندد بما وصل إليه بنو العباس : من الانغماس في الترف ، وتحليل ما حرم الله ، ويوازن بينهم في ذلك وبين بني علي ، المنصرفين إلى الزهد والورع والتفقه :

خلوا الفخار لعلمائهم ، إن سئلوا يوم السؤال ، وعالمين إن علموا

لا يغضبون لغير الله ، إن غضبوا ولا يضيئون حكم الله ، إن حكموا
تبدو التلاوة من آياتهم أبدا وفي بيوتكم الأوتار والنغم
منكم « عليّة »^(١) أم منهم ؟ وكان لكم شيخ المغنين « إبراهيم » أم لهم ؟
ما في ديارهم للخمر معتصر ولا بيوتهم للسوء معتصم
ولا تبيت لهم خنثى تنادهمهم ولا يرى لهم قرد ، له حشم
ويحتم هذه القصيدة بقوله :

صلى الإله عليهم ، أينما ذكروا لأنهم للورى كهف ، ومعتصم
فأبو فراس شيعى ، يتعصب لبني على ، ويحتج لهم ، ويمقت بني العباس ،
وبرام غير أهل الملك ولا خلافة ، وقد أجاد الإجابة كلها في توضيح مذهبه
والانتصار له .

(١) مى عليّة بنت المهدي وأخت الرشيد مغنية مشهورة وإبراهيم بن المهدي مغن مشهور .

خاتمة المطاف

خرج أبو فراس من الأسر ، في شوال ، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، وكأنه خرج ليودع ابن عمه الأمير سيف الدولة ، فإنه لم تنقض بضعة أشهر على هذا الخروج ، حتى وافت المنية أمير حلب ، في صفر ، سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، وارتقى العرش من بعده ، ابنه أبو المعالي سعد الدولة ، وكان في الخامسة عشرة من عمره .

كان سعد الدولة ابن أخت أبي فراس ، وكانت صلته بخاله صلة صالحة قوية ، دفعت أبا فراس وهو في الأسر ، أن يرسل إليه وإلى أخيه أبي المكارم ، يسألها أن يحثا أباهما على فدائه ، ويخاطبها خطاب التجلة والاحترام ، فيقول :
يا سيدي ، أراكما لا تذكران أخاكما
ما كان بالفعل الجميل بمثله أولاكما
فحذا فداى ، جعلت من ريب الزمان فداكما
ولما مات أبو المكارم حزن عليه أبو فراس ، ورثاه ، وعزى عنه أباه سيف الدولة ، فلما ارتقى سعد الدولة عرش حلب ، وجدنا إلى جانبه قرعويه غلام أبيه ، وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا لم نجد أبا فراس بجانب ابن أخته يشد أزره ، ويقوى عضده ؟ ولنا أن نجيب بأن دسائس قرعويه هي التي عملت على البعد بين سعد الدولة وخاله أبي فراس ، فإن قرعويه ، منذ وفاة سيده ، كان يعمل على أن يستبد بالأمر ، دون ابن مولاه ، فأراد أن يوغر صدره على خاله ، ليستطيع أن ينفرد به ، ويستأثر بالسلطان ، وما كان قرعويه بمستطيع أن يفعل ذلك ، وأبو فراس معه في حلب .

نحن نرجح إذاً ، أن النفرة التي حدثت بين أبي المعالي وخاله ، بدأها

أبو المعالي تحت تأثير قرعويه ، الذي انتهت دسائسه باستيلائه على حلب ، وإخراج أبي المعالي بن سيف الدولة منها ، سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، كما يحدثنا التاريخ .

رأينا أبا فراس بعد وفاة سيف الدولة ، يقيم في حمص ، وظل نحو عام ، وهو يشاهد ابن أخته ، وملك أسرته ، يستبد بهما رجل غريب ، لا حسب له ولا نسب ، فأراد أن يقتطع لنفسه جزءاً من هذا الملك يستقل به ، ولا يكون تابعاً لسعد الدولة ، الألعبوبة في يد هذا المتغلب .

أعلن أبو فراس الثورة ، وأراد أن يستقل بحمص وما حولها ، وهنا لاحظ أن أبا فراس لم يهاجم سعد الدولة في عاصمة ملكه ، ولعله أراد اقتطاع جزء من الملك فحسب ، من غير أن يجول بفكره أخذ الملك كله ، أو لعله أراد أن يجعل هذا الجزء ، بعد أن يستأثر به ، قاعدة يهاجم بها ماحوله .

خرج أبو المعالي ومعه قرعويه ، لإخماد ثورة أبي فراس وإخضاعه ، « فأنحاز أبو فراس إلى صدد ، وهي قرية في طرف البرية ، عند حمص ، فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وغيرهم ، وسيرهم في طلبه مع قرعويه ، فأدركه بصدد^(١) . وهنا تختلف الروايات في قتله ، فابن خالوية يقول : إنه ضرب ضربات مات منها ، في الطريق . وابن الأثير يروى أن قرعويه قال لعلام له : اقتله ، فقتله ، وأخذ رأسه ، وتركت جثته في البرية ، حتى دفنها بعض الأعراب . وينقل ابن خلكان أن قرعويه لما قتل ، لم يعلم بأمره أبو المعالي ، فلما بلغه الخبر شق عليه .

ونحن نرجح أن أبا فراس لم يقتل في المعركة ، وأنه إنما أصيب فيها إصابة أودت بحياته ، بعد وقت قصير منها ، وها هو ذا بعد أن خسرها ، يرى أن المقدور لا سبيل إلى الفرار منه ، وأن إرادة الله لا قدرة لبشر على الوقوف في وجهها ، فيقول :

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٢ .

إذا لم يعنك الله فيما تريده فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم ينصرك لم تلق ناصرا وإن عز أنصار ، وجل قبيل
وإن هو لم يرشدك في كل مسلك ضلت ، ولو أن السماء دليل
وينصت إلى ابنته وهي تبكي ، فيهاها عن الجزع حيناً ، ثم يجد نفسه جديراً
بالبكاء عليه ، لشبابه الذي لم يتمتع به ، فيأمرها بالبكاء ، ويقول :
أبنتي ، لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب
أبنتي ، صبرا جميلا ، للجليل من المصاب
نوحى على بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى ، إذا ناديتني وعميت عن رد الجواب :
زين الشباب أبو فراس ، لم يتمتع بالشباب
وأما أن سعد الدولة حزن حين سمع بوفاته ، فقد يكون صحيحاً لرابطة الدم
التي تربطهما ، وقد يكون غرضه من قتاله لأبى فراس أن يأسره ، ويجعله إلى
جانبه حتى يأمن شره ، ولكن قرعويه تعجل ، ليقتل أشد منافسيه خطراً .
متى قتل أبو فراس ؟ يروى ابن الأثير أنه قتل في ربيع الآخر ، سنة سبع
 وخمسين وثلاثمائة ، ويروى ذلك ابن خلكان ، ويحدد يوم وفاته ، بيوم الأربعاء ،
لثمان خلون من هذا الشهر . كما يروى عن ثابت بن سنان الصابىء في تاريخه ،
أنه قتل لليلتين خلتا من جمادى الأولى .
وقد رثاه أبو إسحق الصابىء ، بقصيدة لم أعثر عليها . وقال بعضهم مشيراً
إلى مقتله في صدد :

وعلمنى الصد من بعده عن النوم مصرعه في « صدد »
فسقيا لها ، إذ حوت شخصه وبعدا لها ، حيث فيها ابتعد
كانت سن أبى فراس عندما قتل ، زهاء سبعة وثلاثين عاماً ، فلم يتخط

الأربعين ، وذلك هو ما عليه مؤرخوه ، ولكننا نجد له قصيدة ، يفخر فيها
ويبدوها بالغزل ، وفيها يقول :

وقوفك في الديار عليك عار وقد رد الشباب المستعار
أبعد الأربعين محرمات تماد في العصابة ، واغترار ؟
مما قد يوحى بأنه تجاوز الأربعين ، وذلك مالا نراه ، ولا نوافق عليه ، بل
نحزم بأنه لم يرد عمره ، ولم يتحدث عن سنه بهذا الرقم ، فهو غزل لم يرد به نفسه ،
ولا سيما أن تلك القصيدة أنشأها -- فيما يبدو -- في الفخر قبل أسره ، ولم يقل
أحد إنه قد بلغ تلك السن ، في ذلك التاريخ .
